.. ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه..

بقلم الدكتور: زغلول النجـار

هذا النص القرآني المعجز جاء في الربع الأخير من سورة الحج، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها٧٨ بعد البسملة، وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي جمعت بين سجدتين من سجدات التلاوة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الأمر الإلهي فيها إلى نبي الله إبراهيم(عليه السلام) أن يؤذن في الناس بالحج.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من العقائد والتشريعات الإسلامية
و من الأدلة الكونية التي ساقتها سورة الحج تصديقا لما جاء فيها من أمور الغيب المطلق أدلة عديدة منها : إمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله.
و سأتحدث في هذا المقال عن الآية التي يمن فيها ربنا(تبارك وتعالى) علينا بالإمساك بالسماء كي لا تقع على الأرض إلا بإذنه، وقبل الدخول إلى ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من كبار المفسرين من القدامى والمعاصرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقول المفسرين

في تفسير قوله(تعالى):
.. ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم*. (الحج:٦٥).

* ذكر ابن كثير(يرحمه الله) ما نصه:.. أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال:(إن الله بالناس لرءوف رحيم) أي مع ظلمهم...
* وجاء في تفسير الجلالين(رحم الله كاتبيه) ما نصه:..(ويمسك السماء) من(أن) أو لئلا(تقع على الأرض إلا بإذنه) فتهلكوا(إن الله بالناس لرؤوف رحيم) في التسخير والإمساك.

* وجاء في الظلال(رحم الله كاتبها برحمته الواسعة) ما نصه:.. وهو الذي خلق الكون وفق هذا النظام الذي اختاره له، وحكم فيه تلك النواميس التي تظل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة، لا تسقط ولا يصدم بعضها بعضا... والله سبحانه(يمسك السماء أن تقع على الأرض) بفعل ذلك الناموس الذي يعمل فيها وهو من صنعه (إلا بإذنه) وذلك يوم يعطل الناموس الذي يعمله لحكمة ويعطله كذلك لحكمة.
* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن(رحم الله كاتبه) ما نصه:.. إمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بمشيئته تعالى....

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم(جزاهم الله خيرا) ما نصه:... وأمسك الكواكب في الفضاء بقدرته حتى لا يختل نظامها، أو تقع على الأرض إلا إذا اقتضت إرادته ذلك، إن الله سبحانه شديد الرأفة والرحمة بعباده فيهيئ كل سبل الحياة الطيبة لهم، فكيف بعد ذلك كله لا يخلصون في شكره وعبادته؟.
وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما يلي: تتضمن هذه الآية الكريمة معاني علمية دقيقة، فالسماء " وهي كل ما علانا " تبدأ بغلاف الأرض الهوائي، فالفضاء، فأجرام السماء، المشع منها بذاته مثل النجوم فالمجموعات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النجمية والسدم والمجرات، وغير المشع بذاته كالأقمار، والكواكب والمذنبات والنيازك والجزيئات والذرات والغبار الكوني، وجميع هذه العوالم تحتفظ بكيانها وتماسكها تحت تأثير عدة قوى أهمها الجاذبية والقوي الناشئة عن الحركة، ولقد تجلت مشيئة الله ورأفته بالعباد بأن هيأ للأرض غلافا جويا يحتوي على العناصر الغازية التي لاغني للحياة عنها، كما أنه يحمي سكان الأرض من الإشعاعات الكونية، وأسراب الشهب، والنيازك التي تهيم في الفضاء والتي عندما تدنو من الأرض تحترق في جوها العلوي(احتراقا جزئيا أو كليا) قبل أن تصل إلى السطح (العلوي للأرض).

ومن إرادته تعالى ورحمته أن سقوط النيازك التي تدمر سطح الأرض نادر الحدوث جدا، وهو يتم في الأماكن الخالية من السكان، وهذه الظاهرة تدل على عناية الله تعالى ورحمته بعباده، وفي هذا تأييد وتصديق لقوله تعالى:(ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم).
* وجاء في صفوة التفاسير(جزى الله كاتبه خيرا) ما نصه:... أي ويمسك بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها(إلا بإذنه) أي إلا إذا شاء، وذلك عند قيام الساعة....

المدلول العلمي للنص الكريم

إن أقرب أجرام السماء إلينا هو القمر الذي يبعد عنا في المتوسط بمسافة(٣٨٣٩٤٢ كيلومترا)، وتقدر كتلته بنحو سبعين مليون مليون مليون طن، ويدور في مدار حول الأرض يقدر طوله بنحو ٢,٤ مليون كيلومتر بسرعة متوسطة تقدر بنحو كيلومتر واحد في الثانية، وهي نفس سرعة دورانه حول محوره، ولذلك يرى منه وجه واحد لأهل الأرض.
ومدار القمر حول الأرض، وكذلك مدار الأرض حول الشمس بيضاوي الشكل(أي أنه على شكل قطع ناقص)، ومن قوانين الحركة في المدار البيضاوي(أو مدار القطع الناقص) أن السرعة المحيطية فيه تخضع لقانون تكافؤ المساحات مع الزمن؛ وهذا القانون يقتضي اختلاف مقدار السرعة علي طول المحيط، فتزداد نسبيا بالاقتراب النسبي من الأرض، وتزداد بزيادتها قوة الطرد المركزي، على القمر فتدفعه بعيدا عن الأرض، وإلا اصطدم القمر بالأرض فدمرها ودمرته؛ وتقل السرعة المحيطية للقمر كلما بعد نسبيا عن الأرض،فتقل القوة الطاردة المركزية على القمر لئلا يخرج عن نطاق جاذبية الأرض، فينطلق إلى فسحة السماء أو تبتلعه الشمس، وأعلى مقدار لسرعة سبح القمر في مداره حول الأرض يقدر بما قيمته٣٨٨٨ كيلومترا في الساعة؛ وأقل مقدار لتلك السرعة يقدر بنحو٣٤٨٣ كيلومترا في الساعة، وهذا يجعل السرعة المتوسطة لسبح القمر في مداره حول الأرض تقدر بنحو٣٦٧٥ كيلومترا في الساعة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونفس القانون(قانون الجري في القطع الناقص) ينطبق على سبح الأرض حول الشمس، وسبح باقي أجرام السماء كل في مداره حول الجرم الأكبر، أو التجمع الأكبر.
ويؤكد علماء الفلك أن أبعد كواكب مجموعتنا الشمسية يبعد عن الشمس بمسافة متوسطة تقدر بنحو ستة آلاف مليون كيلومتر، وأن مجرتنا تحوي قرابة تريليون نجم.

كذلك يحصي علماء الفلك أن بالجزء المدرك من الكون أكثر من مائتي بليون مجرة تتفاوت في أشكالها، وأحجامها، وكتلها، وسرعة دوران كل منها حول محورها، وسرعة جريها في مدارها؛ وسرعة تباعدها عنا وعن بعضها البعض، كما تتباين في أعداد نجومها، وفي مراحل تطور تلك النجوم؛ فمن المجرات البيضاوي، والحلزوني، وغير ذلك من الأشكال، ومنها المجرات العملاقة التي يصل قطر الواحدة منها إلى(٧٥٠ ألف سنة ضوئية)، وتصل كتلتها إلى تريليون مرة قدر كتلة الشمس، ومنها المجرات القزمة التي لا يكاد يتعدى طول قطرها(٣,٢٠٠ سنة ضوئية)، ولا تكاد كتلتها تتعدى مليون مرة قدر كتلة الشمس؛ وتقدر كتلة مجرتنا(سكة التبانة أو درب اللبانة أو الطريق اللبني) بنحو(٢٣٠ بليون) مرة قدر كتلة شمسنا(المقدرة بنحو ألفي مليون مليون مليون مليون طن).
وتتجمع المجرات في وحدات تضم العشرات منها تعرف باسم المجموعات المحلية، وتتجمع تلك في وحدات أكبر تضم المئات إلى عشرات الآلاف من المجرات وتعرف باسم التجمعات المجرية، وتلتقي هذه في تجمعات أكبر تعرف باسم المجموعات المحلية العظمى التي تلتقي بدورها في التجمعات المجرية العظمى، ثم تجمعات التجمعات المجرية العظمى، إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.

وفي كل الأحوال يدور الصغير حول الكبير في مدار بيضاوي على هيئة قطع ناقص، تحكمه في ذلك قوانين الحركة في مثل هذا المدار.
والتجمع المجري الأعظم الذي تنتمي إليه مجرتنا يضم مائة من التجمعات المجرية ينتظمها قرص يبلغ قطره مائة مليون من السنين الضوئية وسمكه عشر ذلك(وهي نفس أبعاد مجرتنا مضروبا في ألف).

وفي أيامنا هذه تدرس السماء الدنيا في شرائح تقدر أبعادها بنحو(١٥٠ مليون*١٠٠ مليون*١٥ مليون من السنين الضوئية)، ووصل أضخمها إلى٢٥٠ مليون سنة ضوئية في الطول، وقد أطلق عليه اسم الحائط العظيم.
وهذه الأعداد المذهلة مما قد علمنا من أجرام الجزء المدرك من السماء الدنيا لا تمثل إلا نحو١٠% من مجموع كتلة ذلك الجزء المدرك، وهي ممسوكة بشدة إلى بعضها البعض، وإلا لزالت، وانهارت، ولذلك قال ربنا(تبارك وتعالى):
*.... ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم (الحج:٦٥).
وقال(عز من قائل):
*إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا (فاطر:٤١).
وقال(سبحانه وتعالى):
* الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى....(الرعد:٢).
وقال(سبحانه):
* أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت(الغاشية:١٧،١٨).

وقد تمكنت العلوم المكتسبة من التعرف على عدد من القوى التي تمسك بأجرام السماء على النحو التالي:
(١) قوة الجاذبية: وهي أضعف القوى المعروفة على المدى القصير، ولكن نظرا لطبيعتها التراكمية فإنها تتزايد باستمرار على المسافات الطويلة حتى تصبح القوة الرابطة لكل أجزاء السماوات والأرض بإرادة الخالق(سبحانه وتعالى) حيث تمسك بمختلف أجرام السماء الدنيا على الأقل، وتجمعاتها من الكواكب وأقمارها، والنجوم وتوابعها، وتجمعاتها على كل المستويات إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، ولولا هذا الرباط المحكم الذي أوجده الخالق(سبحانه وتعالى) لانفرط عقد الكون.
ويفترض وجود قوة الجاذبية على هيئة جسيمات خاصة في داخل الذرة لم تكتشف بعد واقترح لها اسم الجسيم الجاذب، أو الجرافيتون الذي يعتقد بأنه يتحرك بسرعة الضوء، ليربط بين مختلف أجزاء الكون حسب قانون محكم دقيق تزداد فيه قوة الجاذبية بزيادة الكتلة للجرمين المتجاذبين، وتتناقص بزيادة المسافة الفاصلة بينهما وقد لعبت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجاذبية دورا مهما في تكثيف الدخان الكوني الذي نشأ عن واقعة الانفجار العظيم. على هيئة كل صور المادة الموجودة في السماء الدنيا(على أقل تقدير) كما لعبت و لا تزال تلعب دورا مهما في إمساك الأرض بغلافيها الغازي والمائي، وبكل صور الحياة والهيئات الصخرية من فوقها.

(٢) القوة النووية الشديدة: وهي القوة التي تقوم بربط الجسيمات الأولية للمادة في داخل نواة الذرة، والتي تعمل على التحام نوى الذرات الخفيفة مع بعضها البعض لتكون سلاسل من نوى الذرات الأثقل في عمليات الاندماج النووي؛ وهي أشد أنواع القوى المعروفة لنا على الأبعاد المتناهية الصغر، ولكنها تضعف باستمرار عبر المسافات الطويلة، وعلى ذلك فدورها يكاد يكون محصورا في داخل نوى الذرات، وبين تلك النوى ومثيلاتها. وتحمل هذه القوة على جسيمات تسمى باسم القوة اللاحمة أو الجليون.
(٣) القوة الذرية الضعيفة: وتحمل على جسيمات تسمى باسم اليوزونات وهي إما سالبة أو عديمة الشحنة، وتربط الإليكترونات الدائرة في فلك النواة، وهي لضعفها تؤدي إلى تفكك تلك الجسيمات الأولية للمادة كما يحدث في تحلل العناصر المشعة.

(٤) القوة الكهرومغناطيسية: وتحمل على هيئة فوتونات الطاقة أو ما يعرف باسم الكم الضوئي، وهذه الفوتونات تنطلق بسرعة الضوء لتؤثر على جميع الجسيمات التي تحمل شحنات كهربائية، ومن ثم فهي تؤدي إلى تكون الإشعاع الكهرومغناطيسي وتؤثر في جميع التفاعلات الكيميائية.
وكما تم توحيد قوتي الكهرباء والمغناطيسية في قوة واحدة، يحاول العلماء جمع هذه القوة مع القوة الذرية الضعيفة، فيما يعرف باسم القوة الكهربائية الضعيفة لأنه لا يمكن فصل هاتين القوتين في درجات الحرارة العليا. وفي نظريات التوحيد الكبرى يحاول عدد من العلماء جمع القوة الكهربائية الضعيفة مع القوة النووية الشديدة في قوة كبرى واحدة؛ بل ضم تلك القوة الكبرى مع قوة الجاذبية فيما يسمى باسم الجاذبية العظمى التي تربط كل صور المادة في الكون اليوم، والتي يعتقد أنها كانت القوة الوحيدة السائدة في درجات الجرارة العليا عند بدء خلق الكون، ثم تمايزت إلى القوى الأربع المعروفة لنا اليوم والتي تعتبر وجوها أربعة لتلك القوة الكونية الواحدة التي تشهد لله(تعالى) بالوحدانية المطلقة فوق كل خلقه، ومن هنا ظهرت نظرية الخيوط فائقة الدقة التي تفترض تكون اللبنات الأساسية للمادة من خيوط فائقة الدقة تلتف حول ذواتها فتبدو كما لو كانت نقاطا متناهية الضآلة في الحجم مشابهة بذلك شريط الحمض النووي في داخل نواة الخلية الحية الذي يتكدس على ذاته في حيز لا يزيد على الواحد من مليون من المليمتر المكعب ولكنه إذا فرد يبلغ طوله قرابة المترين، يضمان ١٨,٦ بليون قاعدة كيميائية في ترتيب غاية في الإحكام وغاية في الإتقان، وتقترح نظرية الخيوط فائقة الدقة، وجود مادة خفية تتعامل مع المادة الظاهرة بواسطة قوة الجاذبية.

وهنا تتضح روعة النص القرآني المعجز الذي نحن بصدده، والنصوص الأخرى المشابهة له في التعبير عن العديد من الحقائق العلمية التي لم يصل إليها إدراك الإنسان إلا بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء، وعشرات العقود حتى وصلوا إلى إدراك شئ منها في السنوات المتأخرة من القرن العشرين.
وورود تلك الحقائق في كتاب الله الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله من قبل ألف وأربعمائة سنة، في مجتمع سادته أمية القراءة والكتابة، وأمية العلم لمما يقطع بالشهادة للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة، وبالرسالة فصلى الله وسلم، وبارك عليه، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com